التجديد في العلوم الاجتماعية مالك بن نبي نموذجا

جعيرن حنان

djairanehanane03@gmail.com

جامعة الأغواط

ملخص:

كان أغلب المفكرين وفلاسفة التاريخ يرون ان التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري الذي تشهده الأمم يقوم في أساسه على مدى ارتباط هذه الشعوب بماضيها وهويتها فهما ووعيا واهتداء ويعتبر مالك بن نبي رائد التجديد والتغيير في ظل الازمة الحضارية التي يشهدها العالم الاسلامي.

Abstract:

Most of the thinkers and philosophers of history believe that the social change and the civilizational building witnessed by the nations is based on the extent to which these peoples are connected to their past and identity, understanding and awareness. Malik bin Nabi is the pioneer of renewal and change in light of the civilizational crisis witnessed by the Islamic world.

الكلمات المفتاحية : مالك بن نبي، التجديد، التغيير، المجتمع

مقدمـــــــــــة:

حتمت التحديات الحضارية في التفكير بمشروع حضاري ينهض بالأمة من الازمة التي تواجهها والتي تزداد تفاقما من وقت لآخر في وقت يزداد فيه الآخرون ازدهارا، وهذا ما أدى بالكثير من الباحثين والعلماء الى محاولة النهوض بواقع الامة من أجل تحقيق تغيير وتجديد اجتماعي بهدف الخروج من واقع التأخر التاريخي الذي يهيمن على مجمل الوقائع

الاجتماعية وقد طرحت قضية التغيير والتجديد من زوايا مختلفة من وجهات نظر متباينة من قبل المفكرين على مدى مراحل مختلفة ممتدّة من تاريخنا الثقافي والحضاري، إذ ظلت الامة الاسلامية تواجه مشكلات حقيقية في مجالات الاقتصاد والثقافة والسياسة، ولا يخفى أنّ أخطرها تلك التي تمس الاخلاق والقيّم، وقد تعددت التصورات والرؤى والمقترحات لحل تلك المشكلات .

وقد اتفق الدارسون على تصنيف الاتجاهات المعنية ببحث أهداف التغيير والاصلاح ووسائلهما على ثلاثة مدارس هي : التقليدية المحافظة، والوسطية المنفتحة، والتحديثية المتساهلة . وقد تميزت المدرسة الاولى بالمحافظة على القالب التقليدي والانكفاء على الذات والتقيد بقواعد المجتمع الاسلامي ورفض الغر جملة وتفصيلا، كما تميزت المدرسة الثانية بالتمسك بخصائص هويتها الحضارية والاعتزاز بدينها مع الانفتاح الفطن على الحضارة الغربية من أجل الاستفادة منها بما يحرك العناصر الحية في كيان الامة، أمّا المدرسة الحديثة فقد عرفت بقبولها الكامل لأفكار الغرب، ونظمه ونظرياته، متحملة كل النتائج خيرها وشرّها.

نذكر من بين هؤلاء العلماء المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي يعد واحدا من أعلام الفكر المعاصر ورائدا في المدرسة الثانية، كما يعتبر من القلائل الذين استطاعوا ابتكار دراسات علمية تستحق التأمل والاستقراء على وجهها الصحيح علّها تقدم حاجة لهذه الامة وحتى للإنسانية من أرز مؤلفاته : من أجل التغيير، ميلاد مجتمع، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي.......وغيرها من الكتب التي تحمل افكاره النيّرة، واقترح مالك بن نبي حلاً لهذه الامة وواقعها المتأزم ما سماه في كتبه ومحاضراته بالتجديد أو التغيير الاجتماعي الذي عبرّ عليه بمعادلة وجعل الفرد والمجتمع قاعدته الاولى.

على ضوء هذا يمكننا طرح التساؤلات التالية :

من هو مالك بن نبي ؟ وما هو مفهوم التجديد عند العلماء عموما وكيف شرح مالك بن نبي هذا المفهوم؟

ماهي أهداف التجديد ونماذجه عند مالك بن نبي ؟

تهدف هذه المقالة الى التعريف بالمفكر الجزائري مالك بن نبي وما يراه حول التجديد الاجتماعي من أهداف يتوجب الوصول اليها مع ذكر النماذج التي يطرحها هذا المفكر الجزائري.

عناصر المداخلة:

1-التعريف بمالك بن نبي

2- مفهوم التجـــــــــــديد

3- أهداف التجـــــــديد عند مالك بن نبي

4- نماذج عن التجــــــــــــديد من خلال آراء بن نبي

1-التعريف بمالك بن نبي:

اسمه الكامل " مالك الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي"[1] ولد مالك بن نبي في الجزائر عام 1905م ونشأ في أسرة فقيرة لأنّ جده هاجر الى طرابلس الغرب احتجاجا على الاستعمار الفرنسي وباع كل ما لديه، وكانت والدته تعمل فوق طاقتها لتسدد ما يريده الطفل من نفقات المدرسة إنّه التشبث بالرصيد التاريخي الاصيل، وبهذه التقاليد وهذه الروح استطاعت البلاد أن تعود لصياغة تاريخها من جديد[2] وقد كانت فترة مولده على حسب ما يقول في مذكراته أنّه قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي ممثّلا في أواخر شهوده وبالمستقبل في أوائل صانعيه[3] .

درس بداية الامر في المدرسة القرآنية الموجودة بقسنطينة ثمّ انخرط في المدرسة الفرنسية حتى تخرّج منها ثمّ سافر بعدها الى باريس لدراسة الهندسة وتزوج زوجته الاولى الفرنسية التي اعتنقت الاسلام وأسمت نفسها خديجة[4]، وبقي مالك يتنقل بين فرنسا والجزائر الى أن استقر في مصر عام 1956م، كان كثير الاطلاع والقراءة في الأدب العربي القديم، وفي كثير من كتب التفسير ، إضافة إلى اطلاعه على أدب المهجر والأدب الفرنسي ، كل هذا صقل ذهنه المتوقد وفكره الناقد ، فاتسع أفقه وحسه الأدبي، وأصبحت له نظرة

منهجية في كل ما يدور حوله، واستطاع مالك بن نبي أن يرصد حركة الاستعمار وقسوته التي أحدثت تغييرات خطيرة في بنية المجتمع الجزائري، بقي بعدها في فرنسا إلى غاية "عام 1956م حيث غادرها نهائيا باتجاه القاهرة ، اين اتصل بالرئيس ''جمال عبد الناصر'' الذي خصص له مرتبا شهريا ، ساعده في التفرغ للعمل الفكري وقامت الحكومة المصرية بنشر مجموعة من كتبه ، و كان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي ، كما أنه زار أثناء تواجده هناك سوريا و لبنان لإلقاء المحاضرات أكثر من مرة [5]

عاد الى الجزائر سنة 1963م ليعيّن مالك مديرا عاما للتعليم العالي بوزارة الثقافة والارشاد القومي الجزائري لكن سرعان ما استقال من منصبه، عد ذلك وافته المنية سنة 1973م بعد معاناة مع المرض[6].

ويقول عنه عمر مسقاوي أحد تلامذته في كتابه " لم تكن حياة بن نبي مرور سائح مدهوش أمام عظمة الامكنة المليئة بالتاريخ، ولكنّها كانت روحا معذّبة تطرح الاسئلة وتبحث عن جواب سر الحضارة التي أخذت بإعجابه وانتباهه منذ الطفولة "[7] وترك مالك بن نبي ورائه تراثا علميا ضخما تظهر ومضاته في هذا العصر وهذه تعتبر نبذة موجزة عن حياة المفكر الجزائري مالك بن نبي .

2- مفهوم التجـــــديد:

معنى التجديد في اللغة : اعادة الشيء الى سيرته الاولى وتجديد الشيء أي صار جديدا والجديد نقيض البلي والخلق[8]، أمّا في الاصطلاح فيحدده جميل صليبا في معجمه قائلا "التجديد انشاء شيء جديد أو تبديل شيء قديم، وهو مادي كتجديد الملبس والمسكن أو معنوي كتجديد مناهج التفكير وطرق التعليم، ويغلب على التجديد أن يكون مذموما في المجتمعات الزراعية الشديدة التمسك بتقاليدها، وأن يكون محمودا في المجتمعات الصناعية التي تقدس روح الاختراع[9].

كما يعرفه صاحب كتاب تجديد الفكر الاسلامي فيقول "التجديد نشاط عقلي دائب قوامه تقليب باستمرار في المعارف المكتسبة والتجارب الحاصلة بقصد تعميمها أو

شرائها وتكييفها مع كل واقع جديد للحاجة الحقيقية والمصلحة المؤكدة للفرد نفسه"[10]، وقد استخدم المفكرون والباحثون مصطلحات مختلفة قد يفهم منها معنى التجديد كالتقدم والتغيير والاصلاح وهي تعتبر بدائل لكلمة التجديد على المستوى الفكري، أما ما يقدمه مالك بن نبي هو مصطلح مرادف للتجديد وهو التغيير يحلّله من منظور مفاهيم نظرية التغيير الاجتماعي ويعرف مالك التغيير أنّ عملية بنائية تستهدف اقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية[11].

إنّ التغيير الاجتماعي وفقا لمنظور مالك بن نبي يتوقف على هذه المعادلة:

حـــضـــــــارة = انـــســـــــان + تـــــــــراب + زمـــــن

ويعتبر مالك أنّ الحضارة شرط من الشروط الآزمة لأي استقرار بشري ويمكن تعريفها أنّها جملة من العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية الآزمة لتطوره[12]، اذن فالتغيير ينطلق من شرح جوهري للدورة الحضارية التي تحددها شروط نفسية زمنية خاصة لمجتمع معين فيحاول مالك بن نبي هنا توظيف مفهوم التغيير لتجديد الفكر الاجتماعي المعاصر وفق معطيات موضوعية ومفاهيم جديدة.

3-أهداف التجديد في العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي :

إنّ المتأمل لتاريخ الفكر والمجتمع يجد تراثه الزاخر بالأحكام والشرائع يصبو الى غايات تعتبر في مجملها انسانية أي مرتبطة بالإنسان وأهميته وعلى ذلك يبني مالك بن نبي فكره، فيقول أنّ الانسان احدى مقومات الحضارة وأنّ لا مجتمع ولا حضارة بدون انسان، فهو يعتبر المحرك الاول للعلاقات الاجتماعية ويصرح بذلك في كتابه فيقول أنّ الفرد يحقق ذاته بفضل ارادة وقدرة ليستا نابعتين منه بل ولا تستطيعان ذلك وانّما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه[13]، فالتجديد يبدأ من الفرد ويهدف الى تغيير الفرد كونه فردا الى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع الى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع[14] .

بهذا يتيح مالك بن نبي الاولوية للإنسان في معادلة التجديد الاجتماعي والبناء الحضاري لكونه اللبنة الاساسية في بناء المجتمعات، كما تستهدف العملية التجديدية (التغييرية) عند مالك بن نبي بلوغ المجتمعات مرحلة الحضارة، فالمجتمع عند مالك هو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى اليه من وراء هذا التغيير (اي تطبيق نظام معين يقوم على ثلاثة عناصر : حركة يتسم بها المجموع الانساني، وانتاج لأسباب هذه الحركة وتحديد لاتجاهها) وعلى أيه حال على حسب تعبير مالك بن نبي فان أمام كل مجتمع غاية فهو يندفع في تقدمه امّا الى الحضارة وامّا الانهيار[15]، بهذا نقول أنّ غاية الاجتماع والمجتمع تكمن في مدى رفع الانسان الى ذروة الحضارة كما يهدف فكر بن نبي الى الترابط الوظيفي بين الانسان والمجتمع وصولا الى الحضارة .

واذ كانت أمتنا تعاني من التخلف الحضاري فإنّ سبيل نجاتها من هذا التخلف هو التجديد الحضاري، وأعدى أعداء هذا التجديد هو التقليد للنماذج الغربية الوافدة التي تعطل ملكة الابداع والابتكار ولن تنهض الامة الاّ بالتجديد فهو ضروري لها اذا ما أرادت اللحاق ببقية الامم[16]، اذن فالتجديد الاجتماعي هو التغيير الذي يستهدف البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومن هنا فإنّ إعادة بناء مجتمع وصياغته تربويا هو تأكيد منهجي لعملية التجديد والتغيير وتأسيس جوهري لإعادة تركيب البناء الاجتماعي .

4-نماذج التجديد عند مالك بن نبي :

تعددت سبل التجديد الاجتماعي واختلفت نماذجه فمثلا ما يورده مالك بن نبي في كتابه مشكلة الافكار في العالم الاسلامي "فالمجتمع الاسلامي مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا ومعها حس الفعالية من أجل أن يثبت للعالم الاسلامي بمنطق العصر بأنّ أفكاره صحيحة ولا توجد غير طريقة واحدة هي اثبات قدرته على تأمين الخبز اليومي لكل فرد[17] .

ويستبشر خيرا بن نبي حينما شاهد الاطباء بقسنطينة يخصصون يوما في الاسبوع لمعالجة المرضى الفقراء فكان يرى في ذلك تعاونا في المجتمع وفعالية تكسو حركيته انه الرجوع الى الاخوة الاسلامية والتكافل الذي عرفه مجتمعنا[18]، فهذا النموذج يعتبر مثالا حيا عن التجديد في المجتمعات .

وحتى يكون التغيير موجه الى تحسين الاداء الاجتماعي فإنّ مالك بن نبي يدعو الى تصفية منظومتنا المعرفية ممّا يشوبها من أفكار ميّتة أو مميتة واستبدالها بأفكار حية أو محيِيّة[19] وهذا لن يتحقق الّا بفكر جديد لهذا اعتبر مالك الافكار بمثابة الميزان الذي نقيس به فقر المجتمعات أو غناها حيث يقول لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء بل بقدر ما فيه من أفكار[20] من هنا نستطيع القول أنّ التجديد كان دائم الطرح وهذا كاستجابة لأسئلة فرضها العصر بتعقيداته فالتجديد هو الاجابة الطموحة من منطلق المواكبة بفتح باب الابداع.

خاتـــــــــمة :

بعد هذا الطرح توّصلنا الى مجموعة من النتائج نضعها على شكل عناصر :

- يسعى المفكر الجزائري مالك بن نبي الى تصحيح المنظومة الاجتماعية التي يعيش في ظلها الفرد المسلم وذلك من خلال تحديد أفكاره .
- كان مالك بن نبي شديد الحماسة في ظل تخلف المسلمين شاغلا باله بمشكلات عصره التي كان يمّر بها.
- يعدّ عصر المفكر مالك بن نبي أحد الدوافع الهامة التي دعته الى ابتكار مبادئ وقيم جديدة تساعد الامة في التحرر من مشكلاتها وتخلّفها .
- إنّ الهدف الاسمى الذي كان يصبو اليه مالك بن نبي هو انصهار عالم الاشخاص والاشياء والافكار في قوالب اجتماعية وذلك لبلوغ الحضارة .
- يرى مالك بن نبي أنّ التغيير أو التجديد هو قاعدة من قواعد المجتمع الاسلامي الذي يعيش حياة يطغى عليها التقليد والتباهي بأفعال الغرب .

- يعتبر الانسان عند مالك الجهاز والمحرك الاول للمجتمعات فلا مجتمع بدون انسان .
- يؤكد مالك بن نبي أنّ التغيير يجب أن يكون مناسب للسياق الثقافي و الاجتماعي والتاريخي.

---

[1] - جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010م، ص17

[2] - مالك بن نبي، مذكرات شاهد على القرن، ط 2 ، دار الفكر، سورية، 1404هـ/1983 م، ص 20 . محمد العبدة، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد اصلاحي، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م، ص23 .

[3] - مالك بن نبي، مصدر سابق، ص 15.

[4] - عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد، ج1، دار الفكر، دمشق، 2013م ، ص 134.

[5] - لويزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي –دراسة تحليلية نقدية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014م، ص 17.

[6] - عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص ص 135/131.

[7] - مسقاوي، مرجع سابق، ص302.

[8] - اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، تحقيق : أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت ،ط2، 1399هـ/1986م، ص454.

[9] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ص242.

[10] - أحلام مطالقة وآخرون، تجديد أهداف الدراسة الاسلامية في ضوء التحديات المعاصرة، مجلة النجاح للأبحاث العلوم الانسانية، مجلد28، 2014م، ص179.

[11] – عميرات محمد الامين، التراث والتجديد في الفكر العربي المعاصر، مجلة الحوار الثقافي، عدد ربيع وصيف 2015، الجزائر، ص 42.

[12] – مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ط1، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الوعي، الجزائر، 1433هـ/2012م، ص42.

[13] – مالك بن نبي، مشكلة الافكار، ص42.

[14] – مالك بن نبي، مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1406هـ/1986م، ص 29 .

[15] – نفسه، ص ص17-18.

[16] – محمد عمارة، الاسلام وضرورة التغيير، نقلا عن : لويزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير في الادب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014م، ص63.

[17] – مالك بن نبي، مشكلة الافكار، ص 113.

[18] – محفوظ سماتي، تأصيل العلوم الاجتماعية عند مالك بن نبي، مجلة اللغة العربية، العدد 15، ص2.

[19] – مالك بن نبي، مشكلة الافكار، ص149.

[20] – مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 37.